حركيَّة السرد في رحلة ابن معصوم المدني (سلوة الغريب وأسوة الأريب)

حمد بن سعود البليهد

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

الملخص

هذه رحلة قام بها ابن معصوم المدني (1120هـ)، وهو حَدَث لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ثم قام بتأليفها بعد تسع سنوات من رحيله، وأسماها: (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، وقد استغرقت رحلته (48) عاماً، وهذه الدراسة تسعى إلى الكشف عن حركيَّة السرد في خطاب الرحلة، وفق رؤية منهجية تهتم بمكونات الشكل الخارجي الذي يؤطر فعل الانتقال، ووتيرة تنقلاته في محطات التوقف والعبور، وارتباطه بالحكاية وأحداثها، كما ستهتم بالخطاب الداخلي وطرائق اشتغاله، وترحيل الأحداث من سياق التاريخ والمرجع إلى سياق التخييل، وعلاقته بزمنية السرد وترميزه.

فعل الرحلة وخطابها

أ - النظام السردي الخارجي

يمكن تعريف السرد بأنه "تجربة زمنية مدركة من خلال فعل تمثيل"[1]، فهناك علاقة جدلية بين السرد والزمن يتحقق من خلالها وجودهما؛ "فالزمن يصير زمناً إنسانياً ما دام ينتظم وفقاً لانتظام نمط السرد، وأن السرد بدوره، يكون ذا معنى مادام يصور ملامح التجربة الزمانية"[2]، وإذا كان السرد لا يتحقق إلا بالزمن، فإن الزمن لا يكون إلا محكياً من خلال التجربة الإنسانية لا خارجها[3]، وبهذا المعنى تصبح البنية السردية بنية حركية في النظام الزمني، ويكون فعل الحكي وسيطاً بين الوجود والزمن بفضل اللغة التي بها يحصل إدراك الوجود الإنساني وتمثيله متخيلاً؛ "إذ يقوم السرد بإعادة نسج العالم المتخيل وتوزيعه داخل الحبكة"[4].

وإذا كان السرد تجربة زمنية، فإن الوصف تجربة مكانية، وصيغة من صيغ الخطابات السردية، ومن خلال تناوب السرد والوصف في سياق الحكي ينسج السرد عالمه المتخيل[5]، وبين المسافة الزمنية والمساحة المكانية تتردد حركية السرد في خطاب الرحلة بمواصفاته البنيوية المتميزة، وما يقيمه من علاقات مع غيره من الخطابات[6]، لإنتاج الدلالة من خلال عمليتي الإرسال والاستقبال.

الوعي بمفهوم الرحلة ومحاولات التجنيس

سعى كثير من الدارسين والمنظرين إلى تقديم محاولات متنوعة لتجنيس الرحلة وتصنيفها، أو إدراجها ضمن حقل محدد، أو منحها تعريفاً جامعاً ملائماً يُقرِّب بين الجهود المبذولة للبحث عن تحديد دقيق لها، إلا أن تلك المحاولات والمقاربات ظلت حائرة أمام نص شديد التعقيد، وقد كان لطبيعة نص الرحلة بسماته التركيبية، ومواصفاته المرنة المُشرعة على جملةٍ من الخطابات، والحقول المعرفيَّة المختلفة - أثر كبير في هذه الحيرة التي بدت واضحة في

مساعي الدارسين، فراوحتْ جهودهم في إطار عام؛ فمرة يطلقون على هذا النص الضبابي (الرحلة) وتارة (أدب الرحلة) أو (خطاب الرحلة)، وربما صنفه بعضهم (الأدب الجغرافي)، وبعد ذلك يصرف كل دارس جهده إلى الاشتغال بخطاب الرحلة ومكوناته البنائية الجمالية، أو يقارب استدلالاته التاريخية، أو يُعمل أدواته للبحث في أنساقه المضمرة وإحالاته السوسيولوجية[7]؛ لذا رأينا بعض الدارسين يلمح إلى أن محاولات تجنيس الرحلة؛ أو تصنيفها في إطار خاص ربما حدَّت من الثراء المتنوع الذي يملكه نص الرحلة؛ مما يدعو إلى ضرورة التعامل معه من خلال تعدديته وتنوعه بهدف صياغة مفهوم يتناسب مع حضوره ومشروعية انتشاره[8].

وربما أسهمت طبيعة هذا النص بمكوناته وتشعباته وأبعاده المتباينة، وعوالمه وفضاءاته التي يتقاطع فيها الواقعي بالمتخيل، في تعدد تلك المواقف التي سعت إلى مقاربته، كما أن هذه الطبيعة هي التي جعلته أيضاً حقلاً خصباً لشتى المقاربات ومختلف التخصصات، وتفسر من جانب آخر ذلك الانجذاب الذي يدفع قارئ الرحلة إلى معايشة عوالمها، والتماهي مع أحداثها المختلفة، بفعل المشاركة والتجارب المتماثلة[9].

وإذا كانت الظواهر، أو التجليات، تسبق محاولات التأمل والإدراك، أو صوغ المفاهيم، فإن نص الرحلة، كما شهد التباساً في محاولات تجنيسه عند الدارسين المحدثين، شهد كذلك غياباً للوعي به بوصفه شكلاً أو أسلوباً لنقل حصيلة تجارب معيشية أو متخيلة بطريقة أكثر ملاءمة من غيره، سواء لدى النقاد واللغويين العرب القدماء الذين قصُر اهتمامهم عن التنظير لبعض الأشكال النثرية، ومن "ضمنها الرحلة التي لم نجد لغوياً أو ناقداً أفرد لها باباً يرصد تاريخها وقوانين تشكلها"[10]، أو عند بعض الرحالة العرب أنفسهم الذين دونوا تجاربهم المعيشية؛ إذ تفاوت وعيهم بالرحلة بين الوضوح والالتباس.

ويأتي ابن معصوم المدني ضمن رحالة القرن الحادي عشر الهجري، الذين امتلكوا وعياً فعلياً بالرحلة بتأكيد صريح، وقد ربط هذا الوعي بوصف الرحلة فائدة، أو خطاباً يتوجه به إلى جمهور خاص[11]: "فأزمعت على أن

أجمع ما وقع لي من ذلك رحلة تكون لأولي الألباب من ذوي الآداب نحلة، أثبت فيها ما وقفت عليه، وما سأقف – إن شاء الله تعالى – جانحاً إليه "[12].

التأطير والتدوين

فرضت الرحلة نفسها بخطابها الإبداعي المتميز بسماته التركيبة المتنوعة، وبتراكمها الإنتاجي المتواتر، الذي ظل يتكاثر في مختلف العصور؛ مما جعل الدارسين والنقاد يولون الرحلة اهتماماً ملحوظاً، دراسة لخطابها بخصائصه الفريدة، وتحقيقاً لنصوصها الثرية، كما فعل شاكر هادي شكر في تحقيقه لنص رحلة ابن معصوم: (سلوة الغريب وأسوة الأريب) التي صدرت في طبعتها الأولى عام 1988م في مجلد واحد، قدَّم فيه المحقق ترجمة لابن معصوم، وتعريفاً برحلته ونسخ المخطوطة، وبذل المحقق جهداً كبيراً في عمله، وذيله بفهارس للأشعار والأعلام والبلاد والأماكن.

ويتأطر المتن السردي لرحلة ابن معصوم تاريخياً ضمن القرن الحادي عشر الهجري، وهي مرحلة اتسمت بالاضطراب والفوضى في المستوى السياسي والاجتماعي؛ فقد كان للاضطرابات السياسية والفتن الداخلية في الحجاز، وفي بلاد الهند التي رحل إليها ابن معصوم – أثر في تردي الأوضاع الاجتماعية، وهي أحوال يتذكرها ابن معصوم في رحلته كثيراً، وقد أرخ ابن معصوم لرحلته: "فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستٍّ خلون من شعبان المعظَّم عام ست وستين وألف "[13].

تتوافر كل رحلة على باعث، أو دافع للانتقال المكاني الواقعي القائم على فعلي الذهاب والإياب لكي تصبح الرحلة متكاملة ولا تتحول إلى "نفي أو ترحيل أو هجرة قهرية أو إرادية "[14]، ومن الطبيعي أن تختلف طبيعة المقاصد والغايات والرغبات من فعل الرحلة، وفي معظم الرحلات العربية تكون البواعث، أو الدوافع اختيارية، سواء قام بالفعل ذات تاريخية برغبة خاصة، أو استجابة لطلب من ذات أخرى، أو القيام بمهمة رسمية كالرحلات السفارية[15]، ولابد لهذا الفعل الواقعي (طريق الرحلة) من نقطة ذهاب وإياب، ولابد أيضاً من

فعل التخييل (طريق الكتابة)، يتزامن معه، أو يتبعه بعد مدة قد تطول أو تقصر، ليمتلك امتداده الزمني، فطريق الكتابة هو الذي ينير مجاهل الطريق المادي، ويضمن له خلوده في مجرى الزمن، بواسطة حركة تبادل التأثير بين المكان والزمان[16].

وقد حدد ابن معصوم باعث رحلته، ونقطة الانطلاق، والفضاء المترحل إليه، بقوله: "وكان السبب في تجرُّع مرارات النوى، وتحمُّل حرارات الجوى، وفراق الأهل والوطن، والبعد عن السوح المحترم والحرم المؤتمن. . .أن قضى الله على الوالد بفراقه لتلك المواطن واغترابه عن هاتيك المنازل والمعاطن، مدعوّاً إلى الدكن من الديار الهندية، مجلُوّاً على السكن في ظلالها الندية"[17].

وكان رحيل والده عام 1054هـ، وبعد ثلاث عشرة سنة قضاها في بلاد الهند يطلب من أسرته اللحاق به "فاستأذن مولانا السلطان في استدعائنا من المواطن الشريفة، ونقلنا إلى سدَّته المنيفة، فأذن له فيما استدعى. . . فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستٍّ خلون من شعبان المعظَّم عام ست وستين وألف".

ويمر خطاب الرحلة التخييلي بثلاث مراحل في سبيل إنجازه، تبدأ بحركة فعل الانتقال، ثم مرحلة التذكر والاستعادة والانفعال، ثم مرحلة التدوين الابتدائي، ثم التدوين النهائي، لتُشرع بعد ذلك بوابة غير متناهية للمتلقي، فيعيد إنتاج النص بقراءات متعددة، وتأويلات مختلفة[18]، وقد استغرق هذا التحويل في رحلة ابن معصوم تسع سنوات بين فعل الرحلة في عام 1066هـ وبين الشروع في تدوينها كتابياً في عام 1074هـ "وهي سنة أربع وسبعين، سنة تأليف هذه الرحلة"[19]، وقد أنجزت عملية التحويل في عام 1075هـ، إلا أن فعل الرحلة والارتحال امتد 48 سنة؛ أي أن ابن معصوم ظل يعيش تجربة الرحلة في بلاد الهند حتى عام 1114هـ، ؛حيث عاد إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، ثم قصد المدينة المنورة، وواصل رحيله إلى مدينة شيراز في بلاد فارس مروراً بالعراق، إلى أن وافته المنية هناك سنة 1120هـ.

يترافق خطاب الرحلة مع حركة الفعل وانتقالات الذات التاريخية

المترحلة، كما يتماهى مع عوالم الرحلة، ويكاد فعل الرحلة في (سلوة الغريب وأسوة الأريب) يشكل مسارات خاصة به يختلف فيها عما هو عليه في أغلب الرحلات العربية؛ فباعثها - على سبيل المثال - يقترب من الرحلة غير الاختيارية؛ فالذات التاريخية لم تكن راغبة بالانتقال، ولا شغوفة بالترحال، ولا يمثل لها تجربة ذاتية تبحث عن الافتتان بالمجهول[20]، بل على العكس من ذلك، فقد كانت الذات الراحلة جزعة متبرمة من فعل الرحلة، "فجهَّز إلينا وزيره المعتمد، وأمره بقطع هذه المدَّة في أقرب أمد، فورد علينا والقلوب لوروده فزعة، والنفوس من وفوده جزعة، وما ذاك إلا لفراق تلك الديار الشريفة والانتقال عن هاتيك الأقطار الوريفة، وما طبعت عليه النفوس من حب الوطن، والجزع لفقد السكن"[21]، ومازالت تحاول تعطيل فعل الرحلة، ومراجعة الطلب "فراجعنا الوالد في فسخ هذا العزم الذي أبرمه، وإطفاء هذا الوجد الذي أضرمه، . . . فلعلَّ الله يمنُّ بالاجتماع في أشرف البقاع، ويطوي مسافة البين من البين، فلن نعدم منه سبحانه كافياً. . . فلم تثن مراجعتنا له عزماً، ولن تعن إلا تصميماً وجزماً، فأعاد الجواب بالطلب، وحثَّ على أن يكون إليه المنقلب، فلم نر بدّاً من الإجابة، . . . فأخذنا في أهبة السفر، والاستعداد لما دهم به البين وظفر".

فالذات التاريخية تقاوم فعل الترحال، وتظل مشدودة إلى نقطة انطلاقها، تواقة إلى عدم مغادرتها بارتباط حميمي، متوجسة من المجهول في الفضاء المترحل إليه، وهنا تصبح علاقة الذات الراحلة مع الفضاء الجديد متوترة، ومليئة بالخوف الكثيف والاستيهامات المتداخلة. "رمتني مرامي النوى بجهدها، وأبدلتني عن خير بلاد الله المشرَّفة بأرض هندها، وناهيك بأرض شاسعة نائية، وبلد أهلها كفرة طاغية، وليس ذلك لطلب نائل، أو بلوغ وطرٍ امتثلت له قول القائل:

وارحَلْ ركابَك عن ربعٍ ظمِئتَ به إلى الجنابِ الذي يهمي به المطرُ[22]

كما أن المدة الزمنية التي قضاها ابن معصوم في بلاد الهند (48) عاماً، تمثل حالة فريدة في سياق الرحلات العربية، إلا أن فعل الرحلة في (سلوة

الغريب وأسوة الأريب) يأخذ الشكل الدائري من خلال العودة إلى نقطة الانطلاق بعد هذه المدة الطويلة، فيبتعد بالرحلة عن مفهوم الهجرة والنزوح الذي يفتقد نقطة الرجوع ويظل مفتوحاً بلا عودة.

ويفترض التلازم بين فعل الرحلة وخطابها عدم المفارقة الزمنية؛ فكلما "انتقل الرحالة في مكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحولات، وصولاً إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع إلى نقطة البداية"، ولكن الشكل الدائري في بناء خطاب رحلة ابن معصوم شكل غير مكتمل؛ بمعنى أن الفعل والخطاب حدث بينهما قطيعة أو مفارقة زمنية؛ فقد استغرق زمن الرحلة الواقعي سنة وتسعة أشهر، فقد بدأ من شهر شعبان سنة 1066هـ رحيلاً من مكة المكرمة، إلى التوقف في قرية (راجابور) في ربيع الأول سنة 1068هـ قبل الوصول إلى المحطة النهائية، "وكانت إقامتنا بهذا البندر ثلاثة أشهر إلا عشرة أيام، وذلك مدَّة ذهاب البشير إلى الوالد وعوده. فخرجنا منه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة من صفر سنة ثمان وستين وألف[23]. . . فلما أسفر الفجر عن صبح يوم الجمعة المبارك بقدرة الله – تعالى وتبارك – لثمان بقين من شهر ربيع الأول قضى الله بانقضاء مدة هذا السفر المطوَّل"[24].

وبعد مضي ست سنوات على إقامته في بلاد الهند بدأت مرحلة التدوين النهائي لحركة فعل الرحلة الواقعي، وترهينه إلى خطاب تخييلي، وقد تمت خلال مراحل الانتقال، ومحطات التوقف في التدوين الأول، عملية رصد المسارات الزمنية والفضائية، ومراكمة المعلومات، وتشغيل الحواس، وتداخل الرؤية البصرية بالرؤية الذهنية "عبر نسيج علائق متعددة، فيها المختلف والمؤتَلف، تتأطر بالواقعي والمتحمل، فتشكل فعلاً لا مستقلاً عن أفعال الذات بكل جوانبها العقلية، والعاطفية وكذلك المنظورات المختلفة"[25].

يضاف إلى ما سبق من المسارات الخاصة التي تميزت بها رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) أن خطاب الرحلة لم يرافق فعلها إلى نقطة العودة؛ فخطاب الرحلة تم ترهينه في اتجاه واحد، اتجاه الذهاب، وتوقف اتجاه الإياب، بينما فعل الرحلة سار في اتجاهين ذهاب وإياب.

فقد توقف بث خطاب الرحلة بعد تدوينها التدوين النهائي "كان الفراغ من هذا السفر(سلوة الغريب وأسوة الأريب) يوم الجمعة لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وألف"[26]، وهنا افترق فعل الرحلة وخطابها على أمل أن يلتقيا في طريق العودة، ولكن هذه العودة استغرقت (48) عاماً، وهي المدة التي قضاها ابن معصوم في بلاد الهند مؤملاً العودة سريعاً، ولكن السبل انقطعت به، وأخذته الغربة، فأدى هذا إلى انقطاع خطاب الرحلة وتُركت نهايته مفتوحة؛ لأن فعل الرحلة كان مجهولاً "والله أسأل أن يمنَّ بالعود على أحسن الوجوه، ويوفق لإتمام هذه الرحلة على أكمل وجه أرجوه. وهنا انقطعت بنا المادة، فوقفنا على هذه الجادة سائلين الله – سبحانه – أن يرزقنا الأوب إلى حرمه... ومتى سنح – إن شاء الله – شيء يليق إلحاقه ألحقناه في سفر آخر"[27]. ويبدو أنه لم يسنح ما يليق إلحاقه، فقد جرفه نهر الحياة في بلاد الهند، والظروف المضطربة، والأحوال السياسية، والفتن الداخلية، فتكالبت عليه الغربة والهموم، "وعلى هذا فلنذكر هنا حكاية غريبة فيها تسلية لكلِّ مهموم، وتعزية لكلِّ مغموم... والحامل على تخصيصها بالذكر ما منيت به في هذه المدة عموماً، وهذه السنة خصوصاً – وهي سنة أربع وسبعين، سنة تأليف هذه الرحلة – من أنواع الهموم الممضَّة، والغموم الممرضة"[28].

مسار الرحلة

يرتسم في كل الرحلات مساران يؤطران فعل الرحلة: هما مسار الذهاب إلى الفضاء المرتحل إليه، أو نقطة الوصول، ومسار الإياب من الفضاء المترحل منه، أو نقطة الانطلاق، وقد رأينا كيف توقف خطاب الرحلة التخييلي نتيجة توقف مسار الرحلة، أو فعلها الواقعي؛ فلم يتكامل المساران، وكان التوقف في نقطة الوصول، وقد امتد الزمن بمسار الإياب مدة طويلة جداً، وظل التأويل مشرعاً على دائرة غير مكتملة، وجملة من الاحتمالات، فلا يعرف المتلقي كيف تمت العودة؛ لأن خطابها كفَّ عن التمثيل، ولم يتزامن مع فعل العودة، ويمكن تصور مسار رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) بالشكل الآتي:

خطاطة مسار الرحلة

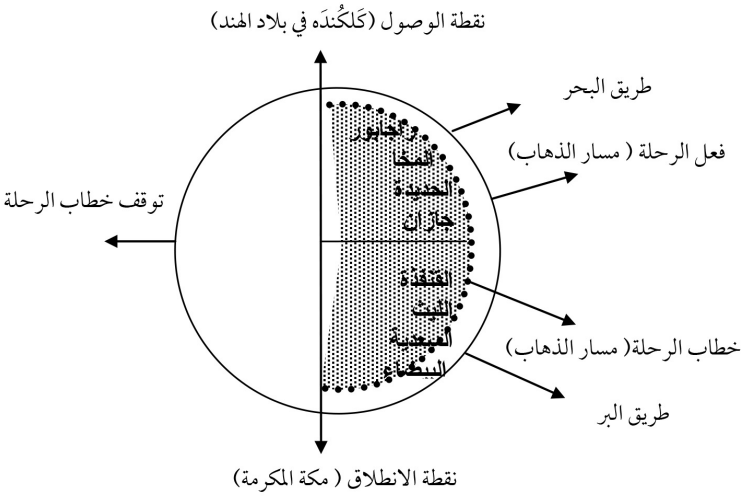

وبهذا الشكل الذي يلخص مسار الرحلة، تكون قد خرجت عن الإطار العام الذي سلكته معظم الرحلات العربية، ولم يحقق خطابها شرط اكتماله في مسار دائري بالعودة إلى نقطة الانطلاق، وسيكون لهذا تأثير في البناء العام، وحركية السرد، كما سنرى لاحقاً.

نوع الرحلة

من أبرز الخصائص النوعية التي تميز بها النص الرِّحلي عن غيره من النصوص، أنه نص قائم على بنية السفر شكلاً ومضموناً؛ بحيث تصبح هذه البنية عنصراً مهيمناً على باقي البنى السائدة في الرحلة[29]، بعد أن يتم تحويل حركة التفاعل المكانية والزمانية، من تجربة معيشية، أو خيالية إلى نص مكتوب يتميز بالتعددية والتهجين، فتظل بنية السفر قطباً جاذباً مهما ذهب خطاب الرحلة بعيداً في عملية التراكم التأليفي من تفسير، ومقارنة، وتوثيق، واستطراد شعراً أو نثراً، واستشهاد، وتأويلٍ، فإنه لا يلبث إلا أن يعود إلى مركز الدائرة.

اجتهد كثير من الدارسين في تقديم محاولات متعددة لتصنيف أنواع الرحلة بحسب مجالات اهتمامهم؛ فمنهم من اعتمد في تصنيفها بحسب المكان

المترحل إليه[30]، ومنهم من صنفها بالنظر إلى هدفها[31]، ومنهم اكتفى بالاعتماد على المرجع لتتشعب إلى أصناف صغرى متفاعلة[32].

وقد خالفت رحلة ابن معصوم المدني في خط سيرها كثيراً من الرحلات الحجازية الحجية، أو ما يطلق عليه الرحلة الزيارية، تلك الرحلات التي تقصد الأماكن المقدسة؛ إذ إن رحلة ابن معصوم غادرت المكان المقدس إلى المكان الآخر المدنس، أو فضاء دار الكفر[33] باتجاه عكسي "وكان فيه أول مشاهدتنا للكفرة أولي الجحيم... ولم يكن يقع النظر قبل ذلك على أحد ممن هو على غير ملة الإسلام"[34]، فهي من الرحلات الخارجية التي تجاوزت فضاء البلاد الإسلامية، ولكن محاولة تصنيفها بحسب هدفها يكاد يكون ملتبساً، فهي ذات مرجعية واقعية في الزمان والمكان، إلا أن دوافعها التي وجهت الأحداث، لها بعض الخصوصية؛ فقد تم فعل الرحلة وابن معصوم حَدَثٌ لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وكان فعل الرحيل بأمر وطلب من والده الذي كان قد سبقه إلى هناك، مدعوّاً من السلطان عبد الله قطب شاه، وقد قلده وظيفة نائب السلطنة في حيدر آباد " وكان السبب في تجرع مرارات النوى... أن قضى الله على الوالد بفراقه لتلك المواطن، مدعوّاً إلى الدكن من الديار الهندية، وكان قد استدعاه إلى تلك الديار مليكها الأعظم... حتى اختاره لمصاهرته، واجتباه لمؤازرته"[35]؛ بمعنى أن ابن معصوم حين رحل لم يكن يملك حرية اتخاذ القرار، بل كان كارهاً للرحيل:

فارقتُ مكةَ والأقدار تُقحمني ... ولي فؤادٌ بها ثاوٍ مدى الزمنِ

فارقتُها لا رضى منّي وقد شهدَتْ ... بذاكَ أملاكُ ذاكَ الحجرِ والركنِ[36]

ولا يعلم أيضاً متى سيكون الإياب، وعلى الرغم من أنه قد وضع التصميم الأولي للرحلة في ذهنه سنة 1066هـ، وربما دوَّن في ذلك الوقت بعض ملحوظاته، ومشاهداته، وعقد العزم على تثقيف نفسه، وحرص على أن يكون فعله فعل امرئ جدَّ في طلب العُلى جدُّه[37]، إلى أن بلغ الثانية والعشرين من عمره سنة 1074هـ، حين شرع في تأليف خطاب الرحلة، إلا أنه لا يمكن تصنيف رحلته على أنها رحلة علمية واضحة الهدف منذ البداية، وإن ارتبط هذا الهاجس، أو الجانب العلمي في ذهن ابن معصوم، لكنه لم يكن هدفاً محدداً

قبل الشروع في فعل الرحلة، كما لا يمكن وصفها أيضاً بأنها رحلة سفارية ذات مهمة رسمية، وإن كان رحيل والده بدافع الطموح، واستجابة لطلب السلطان عبد الله قطب شاه "فلم يسع الوالد إلا امتثال أمره المطاع، والانقياد لحكمه الذي لا يطاق ردُّه ولا يستطاع" [38].

فكيف يمكن تصنيف رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) وهدفها ملتبسٌ بهذه الصورة، ولم يتوافق كذلك خطابها مع فعل إيابها؟، هل هي رحلة اغتراب لأسباب سياسية أو اجتماعية؟ في سبيل البحث عن حياة أفضل، ولا سيما أن الحياة السياسية في زمن رحيل ابن معصوم لم تكن في أحسن أحوالها في بلاد الحجاز، فقد كانت الاضطرابات السياسة تحكم علاقة الأشراف، والصراع على السلطة على أشده بين أفراد الأسرة الحاكمة[39].

كل هذه الأسباب لا يمكن استبعادها في سياق محاولة تصنيف الرحلة، وقد يتداخل بعضها مع بعض مما يسهم في تنوع أهدافها،، ويمكن تصنيف رحلة(سلوة الغريب وأسوة الأريب)، بأنها رحلة خارجية بحسب المكان، ورحلة اغتراب بحسب الهدف، لذا تكثر في لغة السرد منذ افتتاحه، نغمة الشكوى من الغربة، ومن غصص المكايد، وتقلبات الزمان، وتحكمت نظرية المؤامرة في لغة الخطاب "ولقد منيت بكربة الغربة، وتشعُّث الحال، وعهد الصِّبا مخيِّم ما همَّ بالارتحال، وبليت بورود منهل البين الأكدر" [40].

وقد استفاد ابن معصوم في رحلته من المعارف والتجارب التي عاشها، ونهل من علوم شتى عن طريق مجلس وزارة والده في حكومة السلطان عبد الله شاه، الذي ضمَّ نخبة من علماء عصره وأدبائه، فتلمذ لبعضهم، كما أفاد كثيراً من مكتبة حيدر آباد الزاخرة بالكتب النادرة، فتعددت مصادر ثقافته، وتنوعت معارفه في مختلف العلوم.

إذن، فقد علم ابن معصوم بأمر ارتحاله بوقت مسبق، وإن لم تكن له حرية اتخاذ القرار، إلا أنه فكَّر في تحويل فعل الارتحال، وحركة الانتقال بوصفها تجربة ذاتية، إلى نص مكتوب، أو تحويلها إلى خطاب، والانتقال بها من حيز الذاكرة إلى فضاء التداول، وبين الفعل والخطاب مسافة زمنية، قد تطول أو تقصر، وتستغرق

هذه المسافة مراحل الرحلة، لذا فقد تأسست رحلته وفق بعدين: بُعد استباقي يتمثل في التخطيط لتدوين هذه الرحلة قبل الشروع في السفر، عن طريق الإعداد لها، واستدعاء الذاكرة وما تفيض به، والدخول في تقاليد الكتابة والإخلاص لها "فجهدت على أن لا أظفر بنكتة طريفة إلا نمَّقتها، أو فائدة ظريفة إلا علَّقتها، أو شعر فائق إلا كتبته، ولا نثر رائق إلا أثبته... فاجتمع لديَّ من نخب اللطائف ما رقَّ وراق، واقتطفته النواظر من ثمرات الأوراق وانتخبته نتائج الأفكار"[41].

وبُعد إلحاقي يشتغل بترتيب البناء وتحولاته، وتنسيق عناصره، وتأطيره بنص تأليفي تلتقي فيه شتى الخطابات والمعارف، وقد كفل هذان البعدان للرحلة توافر مبدأ القصدية المزدوجة، من خلال حركية الانتقال بامتداداته المادية الواقعية إلى المتخيل برؤيته وتأويلاته الذاتية، ثم قصدية الكتابة، وعيش التجربة وتمثلها مرة أخرى، وإخراجها من دائرة الأنا إلى أفق الآخر في سياق تداولي يمنحها أبعاداً جمالية، وقيماً إنسانية[42]، "فأزمعت على أن أجمع ما وقع لي من ذلك رحلة تكون لأولي الألباب من ذوي الآداب نحلة، أثبت فيها ما وقفت عليه، وما سأقف إن شاء الله – تعالى – جانحاً إليه إلى أن يمنَّ الله – سبحانه – بالعودة إلى أرض الوطن، والأوب إلى العطن، وأورد خلال ذلك من الطرائف المستظرفة، والظرائف المستطرفة ما يروق النواظر، ويجلو صدأ الخواطر فإذ أشرق من أفق الكمال بدرها المنير سمَّيتها: (سلوة الغريب وأسوة الأريب)"[43].

وبهذه القصدية المزدوجة في نص رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، تكون قد توافرت لها أهم العناصر البنائية التي يتطلبها النص الرحلي، بجانب عناصر أخرى، لتحقق سرديتها، وتتميز عن غيرها من النصوص الرحلية غير السردية[44].

وتكاد رحلة: (سلوة الغريب وأسوة الأريب) لابن معصوم تترسم بشكل كامل خطا النص الرحلي، سواء في مستوى مكوناتها الأجناسية: (كالحوارية، والجغرافية، والتاريخية، والسيرية، والغرائبية، والمغامرات، وتقاليد الذهاب والإياب)، أو في مستوى مكوناتها السردية: (كالقصدية، وبنية السفر، والحكاية، وتقاليد الكتابة، والشخصية، والتسجيلية، والوصف المتعدد، والفضاء المتنوع، والشروح والتعليق، والاستطراد، والاقتباس، والتخييل).

سياق العتبات

تتشكل سردية الرحلة من خلال عناصرها التكوينية؛ إذ إنها تتضمن النص ومحيطه، أو النص الأصلي (المتن) والنص الفرعي أو الموازي له (الهوامش)، الذي يمنحها تميزها الأجناسي الخاص في تقاطعها مع غيرها من الخطابات المتعددة والمتعارضة؛ بحيث يستلهم النص الرحلي عتباته[45] وفق منظومة علائقية تؤدي مجموعة من الوظائف المهمة التي توجه عمليتي التلقي والتأويل[46].

يتوزع سياق العتبات الذي يؤطر رحلة ابن معصوم على أربع عتبات: (عنوان المؤلف، وعنوان المحقق أو الناشر، ومقدمة المؤلف، ومقدمة المحقق).

وتؤسس هذه العتبات مجتمعة علامات نصية، وصوراً ذهنية تسهم في الكشف عن ملامح المجهول المنتظر، وتهيئ جواً من الألفة، يستأنس بها المتلقي[47]، وترسل إشارات يهتدي بها، وهو في سبيله إلى استكشاف نص الرحلة ليبدأ فعل القراءة، ومن ثَّم فعل التأويل، من خلال استثمار المتلقي معرفته بقوانين الجنس الأدبي، واستدعائه ثقافته العامة، محاولاً إزالة التشويش الذي قد تتعرض له رؤيته وأفكاره، وهي تسعى لفك رموز العتبات وشفراتها[48].

العنوان

يستمد العنوان في أي مؤلف أهميته من مجموعة عوامل: أدبية، وأخرى نفسية، واجتماعية، وتسويقية[49]، وهو ضرورة كتابية، وعلامة لغوية تمنح العمل تميزه الجمالي والأجناسي، كما أنه يقترن بالوعي الكتابي التنظيمي[50]، ومن ثم تتعدد وظائفه وتتعقد[51]، كما يكتسب أهميته أيضاً من خلال أولية موقعه في عملية الاتصال، وبيانه لقصدية المؤلف، وتهيئته أفق التوقع لدى المتلقي بأقصى فعالية ممكنة[52]، على الرغم من اتصافه بأعلى كثافة لغوية[53]، وأولية تلقي العنوان تعني وجود مسافة بين العمل وعنوانه، لذا فالعنوان يتميز بمستويين متباينين، من حيث إنه بنية لها استقلالها واشتغالها الدلالي الخاص، ولكنها بنية في الوقت نفسه تتخطى حدودها، وتقيم شبكة علائقية مع بنية العمل، أو الخطاب، فيدخل العنوان في عملية تكافؤ على المستوى السيميائي مع عمله،

ويشكل مفتاحه التأويلي[54]، فإذا كان المؤلف ينطلق من مقاصده في صنعه العنوان، ففي المقابل نجد المتلقي يعتمد على مرجعيته المعرفية في عملية الاستقبال والتأويل، بتفاعل غير مقيَّد "بين دوال العنوان وموضوعات تلك المعرفة؛ الأمر الذي يقيم تنظيماً أولياً لها، وبه تمتلك الدوال القدرة على إنتاج دلالتها"[55]، وفق قاعدة عكسية، فالمرسل يبدأ بالعمل وينتهي بالعنوان، بينما المتلقي يبدأ من العنوان منتهياً بالعمل[56].

وقد تنوع العنوان في النص الرحلي إلى تصنيفات لها خصائص تحدد هوياتها، وتؤكد علاقاتها بالنص، وتملك قوانين تضبط تشكُّلها، وقد أسهم "السرد العربي القديم في توجيه التفكير إلى أسلوب خاص في العنونة، يخضع إلى الثابت والمتغير "[57].

وقد حاول بعض الدارسين رصدها في أربع مجموعات[58]:

1 - عناوين تضاف إلى أصحابها، أو الجهة المترحل إليها، أو صفة الرحلة ونوعها[59]، وهي إضافة يلجأ إليها الناشر غالباً لأسباب متعددة.

2 - عناوين لرحلات عنونت بمفردة (رسالة)، وربما يعود ذلك إلى عدم شيوع جنس الرحلة وقتذاك، وهي رحلات تحيل إلى مفهوم التقرير، فهي تصف رحلات، أو مهمات رسمية[60].

3 - عناوين لرحلات صُدرت بمفردة (تحفة)، كرحلة أبي حامد الغرناطي (565هـ) المسماة (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)، وقد عزا شعيب حليفي انتشار هذه المفردة في عناوين بعض المؤلفات الرحلية، وغير الرحلية إلى التأثير الفاعل لعنوان رحلة ابن بطوطة، ويبدو أن ما ذهب إليه شعيب حليفي تعوزه الدقة، فنظرة سريعة في كتاب: (كشف الظنون) تكشف عن مجموعة من المؤلفات المتقدمة زمنياً على ولادة ابن بطوطة بسنوات كثيرة، ومن أشهرها كتاب: (تحفة الألباء في أخبار الأدباء) لياقوت الحموي (626هـ)، بل إن وفاة أبي حامد الغرناطي سبقت ولادة ابن بطوطة بأكثر من قرن، ورحلة الغرناطي من ضمن مراجع شعيب

حليفي، ولكنه لم يتنبه للفارق الزمني بين الرحلتين، وربما صح القول: إن ابن بطوطة هو من تأثر بهذه المفردة وعنونها لرحلته[61].

4 – عناوين بعيدة عن المجموعات الثلاث السابقة (الرحلة، والرسالة، والتحفة)، وهي عناوين تتم صياغتها بمفردات وتراكيب توحي بمعنى الرحلة، أو مرادفاتها، أو تُحيل إلى ما يفيد السفر، وقد تشكل هذه المفردات بعض القرائن والإشارات، وتختلف درجة الإيحاء أو الإحالة بين التصريح والتلميح.

عنوان المؤلف والناشر

يمكن إدراج عنوان رحلة ابن معصوم: (سلوة الغريب وأسوة الأريب) ضمن المجموعة الرابعة، وحين نلقي نظرة على غلاف الكتاب نجده يُصَدَّرُ بعنوانين، الأول: العنوان الفرعي، (رحلة ابن معصوم المدني)، وهو عنوان الناشر، وربما تم اختياره بالاتفاق مع المحقق، وهو عنوان يندرج في المجموعة الأولى؛ حيث التصريح بجنس الكتاب، ونسبته إلى صاحبه، من خلال مفردة (رحلة) التي تشير إلى جنس العمل، وتحدد نوعه، ومن ثم توجه عملية التلقي، وتؤثر في أي تأويل للنص[62]، على أن هذه المفردة في عنوان الناشر أو المحقق، وإن أسهمت في بيان نوع العمل، فإنها في الأساس اعتمدت على تجنيس المؤلف لعمله، وقد أشرنا سابقاً إلى أن ابن معصوم كان على وعي تام بمفهوم الرحلة، وبتصريحه وتسميته لعمله بالرحلة، وهو وعي يشير إلى بُعْد نقدي، باختياره هذا المفهوم على الرغم من أن النص الرِّحلي يتقاطع مع أجناس أخرى، ويتميز هذا العنوان بالمباشرة، والخفة في النطق والتداول[63]، كمان أن له أيضاً طابعاً إشهارياً تسويقياً، فهو على الرغم من فرعيته، سبق العنوان الأصلي في صدارة غلاف الكتاب، وكُتب بخط سميك يتجاوز الخط الذي كُتب به العنوان الأصلي، وقد تصدَّر بوصفه شارحاً للعنوان الأصلي، وموضحاً للبسه، أو غموضه، ومرشداً إلى مقاصد المؤلف، ولو بشكل جزئي، ومسهماً في الكشف عن وعي المؤلف، ومنح العمل هويته باقترانه بكلمة (رحلة)، وإن كان هذا العنوان لا يقدم للمتلقي إشارات عن طبيعة الرحلة، أو مقصدها، أو

زمنها، فهي رحلة إلى فضاء مبهم، وهذه المساحة من الفراغات سيملؤها المتلقي من خلال سياق العتبات اللاحقة،أو بعد الانتهاء من قراءة الرحلة محاولاً تأطيرها وتأويلها.

ويشير المقطع الثاني من عنوان الناشر، أو المحقق (رحلة ابن معصوم المدني) إلى دلالة التعيين ونسبة الرحلة إلى صاحبها، لرفع اللبس، أو الضياع، أو الوهم أو التغيير، فهو بمثابة حفظ حقوق المؤلف، كما تدل هذه الإضافة على من قام بفعل الرحلة وساردها وشخصيتها المركزية[64].

بعد هذا العنوان الفرعي المتصدر يصادف المتلقي عتبة أخرى، تتمثل في عنوان المؤلف (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، وقد سبقت الإشارة إلى أن المؤلف يبدأ غالباً بالعمل، وينتهي بالعنوان على عكس المتلقي" فإذ أشرق من أفق الكمال بدرها المنير، وتفتَّق عن حجب الكمام زهرها النضير سميتها (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، ليطابق الاسم مسمَّاه، ويوافق اللفظ معناه، وفيها أقول:

رحلتي المُشتهاة تُزري بالرَّوض عند الفتى الأريبِ
فإن تغرَّبتَ فاصطَحِبها فإنها سلوةُ الغريبِ[65]

وربما يكون المؤلف قد أعطى عنوانه من العناية والاهتمام ما أعطاه لعمله، كما أن عملية اختيار العنوان لا تقل إشكالاً عن العمل، فمقاصد المؤلف من العنونة تختلف عن مقاصده من العمل، وتؤثر فيها عوامل مختلفة[66]، كما أن العنوان مقارنة بعمله يُقدم مفارقة، فهو شحيح الدلائل، سخي الدلالة، وقد أُعجب ابن معصوم برحلته، بعد أن أكمل سردها، وتمت إضاءة جوانبها، فاجتهد بعد ذلك في صياغة عنوانها، حتى غدت في نظره "فها هي كالمُنية قد أنجحت لراجيها، أو العروس قد أُبرزت في ناديها، فخذها بارك الله لك فيها"[67].

وحين نتأمل عنوان المؤلف، لا نجده يخرج عن سياق عنونة النص الرحلي القديم؛ فقد أولى القدماء كتبهم عناية خاصة باختيار عناوينها، وجعلها دالة على موضوع الكتاب، موحية بمضمونه، مع أناقة في التسمية، وذكاء في الإيحاء بالمقاصد، وإعجاباً وفتنة أحياناً بالكتاب، وقد يبدو كلُّ ذلك واضحاً في

تفنن المؤلفين في صياغة عناوين كتبهم، وجعلها مطابقة لموضوعاتها، ومن كثرة التعلق بالعناوين نجد من اختار لكتابه أكثر من عنوان، وربما كان العنوان بيتاً من الشعر، مع حرصهم على أن يختزل العنوان موضوع الكتاب، وأن يدل على قصد المؤلف، ويوافق مضمونه، بطريقة موضوعية تعتمد الإيحاء[68]، وشائع في مؤلفاتهم مثل هذه العبارة التي أوردها ابن معصوم وهو يسمي رحلته "ليطابق الاسم مسمَّاه، ويوافق اللفظ معناه"[69].

يتكون عنوان المؤلف: (سلوة الغريب وأسوة الأريب) من تلفظٍ اسمي بمقطعين متوازنين، في كل مقطع مفردتان، مضاف ومضاف إليه، يشير المضاف إلى اسم نكرة تكتسب تعريفها بإضافتها إلى صفة، ويتجانس المقطعان لفظاً في الإيقاع والتركيب، ويحيل العنوان إلى دلالة مجازية، يقف المتلقي أمامها محاولاً تأملها وتحليلها، وتفتح هذه الدلالة في مخيلة المتلقي نافذة الاحتمالات، فيستحضر معرفته وثقافته للترجيح بين هذه الاحتمالات، بما تختزنه ذاكرته من تعالقات ماضية، أو توليد تعالقات مستقبلية جديدة، وهنا تكمن المفارقة بين شح الدلائل في العنوان، وسخاء الدلالة التي تعود إلى طبيعة اللغة في اعتمادها على قانون التركيب الجملي، وقانون التركيب النصي لضبط فعاليات طاقة التدليل الحر نحو دلالة اقتصادية[70].

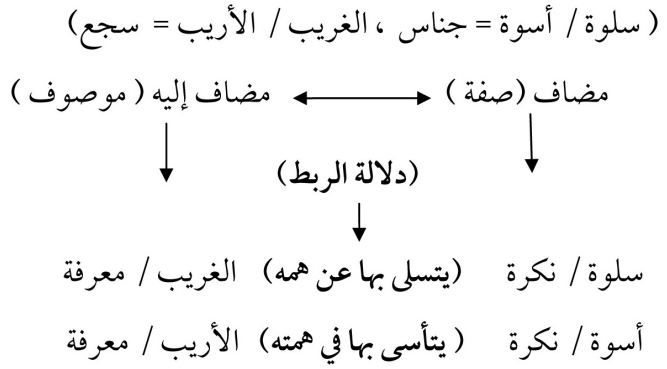

يحيل العنوان بتركيبه اللفظي والإيقاعي المتكون من فقرات التسجيع والتجنيس إلى جملة شعرية، تحمل نواة دلالية تتفرع بعد تفكيكها إلى مجموعة من الأبعاد الرمزية التي كونت وحدتها، وبتأمل المصفوفة السابق لمقولة العنوان نجد أن (سلوة) تشير إلى معنى انكشاف الهم وزواله، وتورد بعض المعاجم حكاياتٍ تقترب من الخرافة والأسطورة، ترافق معنى السلوة والسلوان، فهي أحياناً خَرَزةٌ تُسحق ويُشرب ماؤها فيورث شاربه سلوة، وأحياناً أخرى خَرَزةٌ شفافة تُدفن في الرمل، ثم تتحول إلى سوداء يُسْقاها الإنسان فتسلِّيه، وربما وصُفت بشيء مجهول، وقد تطلق على تربةٍ من قبر الميت يُذَرّ عليها الماء فُيسقاه العاشق فيسلو، وهي أيضاً حصاة يُسقى عليها العاشق المحزون فيتسلى، وهي خَرَزةٌ تسقى بماء المطر فإذا شربه العاشق سلا، وهي دواء يُسقاه الحزين فيسلو والأطباء يسمونه المُفرِّح[71]، تُفصح كل هذه المعاني، وما رافقها من حكايات عن أن السلوة رُقية، أو تعويذة ينشدها الحزين ليسلو عن همه وحزنه، وبهذا يمكن القول: إن (سلوة) في العنوان تعويذة ورُقية تساعد الغريب على نسيان كربته في غربته، فتمنحه الوقاية والشفاء، فهي زاد الغريب، وعلاجه الذي يتطبب به في اغترابه، وما يقاسيه من جروح الروح والجسد، فهي وطن الغريب، وحين نقرأ الرحلة، ونتعرف إلى سيرة الرحَّالة، وما لقيه في غربته، حين غادر وطنه إلى بلاد بعيدة غريبة الوجه واللسان، وهو حدَث في الرابعة عشرة، ولم يرجع إلى وطنه إلا في أواخر حياته، ليكابد غربة أخرى في وطنه، بعد أن تغير كل شيء بعد غياب دام ثمانية وأربعين عاماً، حين نعرف كل هذا، نجد أن مقطع العنوان الأول (سلوة الغريب) يفصح عن الثيمة الرئيسة في الرحلة، ويكشف عن مدى ارتباط العنوان ببنيتها ودلالتها، لكن صيغته التلفظية بما لها من كثافة لغوية، وإيحاءات رمزية، لا تسعف المتلقي كثيراً في تجنيس الكتاب بشكل مباشر، فهي تحتاج إلى مزيد من التأمل، وربط الغربة بالارتحال والانتقال، ولكنه بعد أن يقرأ الرحلة سيجد أن الشكوى من الغربة هي الهاجس الذي لا يفارق خطابها في كل مراحله، وبهذا يكون المقطع الأول من العنوان (سلوة الغريب) قد طابق خطاب الرحلة.

أما مفردة (أسوة) في المقطع الثاني من العنوان (أسوة الأريب)، فهي تشير إلى معنى القدوة والمثال والنموذج، وأيضاً معنى التأسي، وهو ما يتأسى به الحزين ويتعزى به، وسمِّي الصبر أُساً[72]، وإذا كان المقطع الأول يشير إلى معاني الرقية والدواء الذي يساعد الغريب على تجاوز ألم غربته، فإن المقطع الثاني يشير إلى النموذج والمثال الذي يقتدي به الأريب في رحلة الحياة، ويتأسى به ويتصبَّر به على أكدارها، وحين نجمع المقطعين (سلوة الغريب، وأسوة الأريب) يتحصل لنا المعنى الكامل من العنوان، فهذه الرحلة هي إكسير الغريب في غربته، تسليه وتنسيه همه ويسلو بها، وهذا الغريب لن يصل إلى مرتبة الأريب حتى تكويه الغربة، وتصقله التجارب، ترحُّلاً واغتراباً، فيتأسى بهذه الرحلة بعد أن يكون قد وصل مرتبة الأريب، فتصبح (سلوة الغريب وأسوة الأريب) له أمنية كان يرجوها، وعروساً قد زفت إليه في ناديها، فالغريب يتسلى بها عن همه، والأريب يتأسى بها في همته، ولا شك أن عنوان (سلوة الغريب وأسوة الأريب) قد مثَّل تجربة الرحالة في رحلته بشكل كبير؛ حيث كل مفردة لها مدلولها في إطار النسق الثقافي الذي ينتمي إليه المتلقي ضمنياً، والمحكوم بوظائف توجيهية وتأطيرية، تسهم في تحفيز مجموعة من المعارف يفترض أن يمتلكها متلقي الرحلة[73].

مقدمة المحقق

يأتي خطاب المحقق للرحلة من خارج النص، فهو تهميش على المتن، يحدد إطاره العام، فيكون بمثابة المدخل القبلي، وأحياناً أخرى هو إيجاز لأهم ما ورد في المتن، إضافة إلى التعريف بالرحلة وبالرحَّالة، وبعض التعليقات والإيضاحات المهمة التي تضيء المتن، وتُمنهج قراءته وتلقيه،أريب فتحقيق المخطوط في الرحلات القديمة هو قراءة للمتن قراءة صحيحة، وإحكام تحريره وضبطه، وإخراجه بصورة تقارب الوجه الصحيح الذي وضعه عليه مؤلفه، أو محاولة مطابقة الوضع الأصيل الذي تم على يد مصنفه، باعتماد منهج علمي يحكم سير عملية التحقيق، فالكتاب المحقق هو الذي صح عنوانه، واسم

مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه[74].

ومقدمة المحقق من شروط المنهج العلمي؛ فالتحقيق مهمة شاقة يتجشم فيها المحقق جهداً ووقتاً كبيرين، لا يقلان عن جهد المؤلف ووقته، ومن الطبيعي أن تتفاوت مقدمة المحقق بين المؤلفات إسهاباً وإيجازاً بحسب المحقق والمؤلف الذي قام بتحقيقه.

وقد بذل محقق رحلة ابن معصوم (سلوة الغريب وأسوة الأريب) جهداً كبيراً في تقديمها وتحقيقها، والتعريف بالمؤلف والكتاب والمنهج الذي سلكه في عمله والنسخ التي اعتمد عليها، على أنه لم يعثر على نسخة المؤلف، أو نسخة مقروءة عليه، لكنه اطمأن إلى سلامة النص، وتثبَّت من صحة نسبته، من خلال ثلاث نسخ تتفاوت في قربها من عصر المؤلف، فكانت مقدمة المحقق عتبة مهمة، أسهمت في توضيح مضامين فعل الرحلة، وأبانت عن دوافعها، وكشفت مجمل الظروف التي أحاطت بتدوين خطابها ومراحل تكوّنه، كما كانت إيجازاً مكثفاً لأهم موضوعاتها وقضاياها، ولا سيما أن مقدمة المؤلف، كما سنرى، لم تكن مؤطرة ولا معنونة، بل جاءت مبثوثة في مجموع نص الرحلة.

مقدمة المؤلف

على الرغم من ندرة وجود رحلة دون تقديم أو تمهيد[75]، فإن التقديم، أو التمهيد لا يأتي معنوناً ولا مؤطراً، بل غالباً يكون مندمجاً في الصفحات الأولى، أو يتوزع في مجمل النص الرحلي مرتبطاً به، ومتداخلا مع مقاطع السرد، ويهتم بشكل أساسي بمحيطات النص، فيتضمن عناصر ما قبل التدوين وما بعده، كما قد يقدم بعض المؤشرات التي رافقت تخطيب فعل الرحلة، وتاريخ الفعل والخطاب، والمكان، والدوافع، والعنونة، وربما تضمنت المقدمة أيضاً رؤية المؤلف في قضايا الكتابة، ومقدمة رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، موجزة فلم تتضمن جميع عناصر ما قبل التدوين، وإنما توزعت هذه العناصر في مجمل النص، واكتفت المقدمة بالشكوى من كدر

الأيام، وركود ريح الفضل وخبو مصابيح الأدب، "هذا ليس إشارة إلى الزمن العديم، بل العلَّة عادية، والبلاء قديم، حتى قيل: ما فسد الناس وإنَّما اطَّرد القياس، ولا اظلمَّت الدنيا، وإنَّما امتد الظلام"[76]، ثم الحديث عن بعض خصاله الذاتية، وما لقيه من كدر الغربة "هذا وإني منذ كبر عن الطوق عَمري، وارتفع عن منافثة الأتراب عُمري، لم أزل أصابح وأماسي ما يهدُّ أيسره الرواسي، . . . ولقد منيت بكربة الغربة، وتشعُّث الحال وعهد الصِّبا مخيِّم ما همَّ بالارتحال"[77]، وقبل ختام المقدمة وردت الإشارة إلى ما يمكن وصفه بمرحلة ما قبل تحرير الرحلة؛ حيث رسم الإطار العام، أو وضع التصميم الأولي، وما يرافقه من جمع المعلومات، ومراجعة الذاكرة، وكذلك الحديث عن عناصر متعلقة بتجنيس الكتاب، وعنونته، وقد سعت مقدمة المؤلف إلى تقديم مؤشرات توجيهية للمتلقي مدعومة بشبكة من الإغراء والإقناع بالتجربة التي عاشها الرحالة واقعاً، ثم تمثلها في مخيلته، وصاغها خطاباً تواصلياً يكشف عن المقصدية المعرفية التي تناسب ذائقة عصرها وسياقها الثقافي.

سبقت الإشارة إلى أن ابن معصوم كان على وعي بالنوع الذي يكتب فيه، وترتبط مسألة إدراك الجنس بالوعي النقدي للمؤلف، على أن كثيراً من مؤلفي الرحلة يستلهمون قوانين الجنس، أو مكونات النوع، بلا وعي منهم، فطبيعة الرحلة تتيح لهم ذلك، فهي تتحقق بالواقع بوصفها فعلاً وتجربة؛ "لأن المؤلف يلجأ إلى تدوين رحلة قام بها (أو سمع عنها) في تقييد كرونولوجي يسرد المشاهدات بطرق وصيغ معينة"[78]، وربما تفردت الرحلة في هذا الجانب من بين أشكال الكتابة الأدبية، إلا أن المسافة بين المقدمة ونص الرحلة تظل متباينة، فالمؤلف في المقدمة يحمل رؤية تنظيرية نقدية، منشغلاً بكل ما هو خارج النص فيما يخص قضايا الكتابة، أما في النص، فالمؤلف يتخذ وضعية السارد والمئبر، فالمتلقي يُقدم إليه عالم النص من خلال منظور ذات مزدوجة، فهي تتحرك في هذا العالم وتراه، وهي من جهة ثانية الذات التي تسرد عنه[79].

وتشمل مقدمة الرحلة – إضافة لماسبق – بعض الخصائص الأسلوبية الخاصة التي قد لا تشبه أسلوب نص الرحلة، كالأسلوب المقيد بالسجع، "هذا

وإني منذ كبر عن الطوق عَمري، وارتفع عن منافثة الأتراب عُمري، لم أزل أصابح وأماسي ما يهدُّ أيسرُه الرواسي، وأكابد وأقاسي ما يليِّن أهونه القواسي، أسوق من دَهرٍ قصصاً، وأسيغ من غَمرٍ غصصاً"[80]، وصيغ الحمدلة التي تناسب طبيعة اكتشاف بعض خفايا الكون في فعل الرحلة "الحمد لله الذي جعل الأرض مهاداً، وسلك فيها سبلاً، وأودعها من عجائب صنعه، ما شاهدته أبصار أولي الأسفار قُبُلاً"[81]، والاقتباسات المتنوعة المؤيدة لرؤية المؤلف، كما تتحدد المقدمة أيضاً بوصفها بنية صغرى في خطاب الرحلة، بما يطلق عليه هنري متران المستويات المضمرة التي تشمل الضمائر، والزمن، والفضاء[82]، وهي مستويات يفترق عندها خطاب الرحلة ويلتقي في الوقت نفسه، فخطاب المقدمة يمكن وصفه بالإطار الافتتاحي حيث يحضر خطاب السرد بواسطة السارد/ الشخصية/ بضمير المتكلم برؤية داخلية ذاتية، "حتى كأني استدبرت وطنا، واستقبلت وطرا، وسلوت عن قديم ما سلف بحديث ما طرا، فاجتمع لديَّ من نخب اللطائف ما رقَّ وراق"[83]، بينما تمثل البنية الكبرى لخطاب الرحلة الصورة الكاملة حيث يحضر خطاب الوصف بواسطة السارد / المئبر/ بضمير الغائب برؤية خارجية موضوعية، "ومن جزائر البحر العجيبة: جزيرة القُمْر... طولها أربعة عشر في عرض عشرين يومياً إلى أقل من ذلك، وتحاذي جزيرة سرنديب"[84]، ولكن خطاب المقدمة قد يخرج أحياناً عن هذا الشكل، حين تُقدِّم الذات الساردة نفسها بصيغٍ اعتراضية بضمير الغائب "وبعد، فيقول المُفتقرُ إلى ربِّه الغني علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين الحسيني الحسني، هداهما الله إلى سواء السبيل"[85]، ولكن مع تقدم مسار الحكي، واشتباك السرد مع الوصف والتقرير، تتوارى ضمائر الذات/ الأنا، ويتضاءل التمركز حولها، لصالح ضمير الغائب، ويأخذ الوصف المساحة الكبرى، ويتوزع خطاب الرحلة إلى موضوعات أخرى بعيدة عن الذات، ويبدو أن الافتتاح بصيغة ضمير الغائب المتضمن عبارات الدعاء، وصفات الذات المتكلمة التي تأتي غالباً في بداية المقدمة، إضافة إلى أنه ملفوظ سائد في تقاليد الكتابة

التراثية، فهو يكشف أيضاً عن تهيؤ الذات قبل ظهورها على مسرح الأحداث، والتعبير للمتلقي عن وجودها ودوافعها[86].

البناء وحركية السرد

ب - النظام السردي الداخلي

تتأسس مختلف الخطابات، مهما كان نوعها، على طريقة محددة في البناء تتشكل من خلاله وتختص به، ويميزها عن غيرها[87]، ويدخل الزمن ضمن مكونات هذا البناء، فلا يقف عند حد إطارها الخارجي، بل تمتد أهميته إلى آليات اشتغال الخطاب السردي، ووظائفه ومستويات تلقيه[88]، ويتشكل الخطاب الرحلي بصفة عامة من نظامين سرديين: نظام خارجي يؤطر فعل الانتقال، ومسار الذهاب والإياب، وحركة الرحَّالة، ووتيرة تنقلاته في محطات التوقف والعبور؛ بمعنى يرتبط هذا النظام بالحكاية المسرودة وأحداثها، بينما ينشغل النظام الداخلي بطريقة السرد والخطاب، مهتماً "بطرائق ترحيل الأحداث من سياق التاريخ والمرجعي إلى سياق التخييل"[89]، ويتحكم في منظومة السرد وزمنيته، وعلى الرغم من أن هذا التقسيم الثنائي يكاد ينتظم مجمل الخطابات الرحلية، فإنه في رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) يأخذ بعض الخصوصية التي أشرنا إليها سابقاً، فلا نجده بهذا الشكل الدائري المتكامل؛ فقد توقف خطاب الرحلة عن مواكبة فعل العودة، ولم يتماهَ معه، وانتهى السرد بطريقة مفتوحة، دون الإشارة بصورة صريحة أو ضمنية إلى العودة.

وتعتمد دراسة تشكُّل خطاب الرحلة على ما أنجزته السرديات من إجراءات فاعلة في تحليل النصوص السردية، مع محاولة الاستفادة من بعض مفاهيمها، بوصف خطاب الرحلة تلفيظاً لفعل السفر الذي تتوزع فيه الوحدة الحكائية، وتتشعب إلى انزياحات متعددة، فعن طريق، توالي الأحداث، وتتابع المشاهدات، ومقاطع الاستطراد، والوقفات التأملية، والإضافات والتعليقات، التي يتنقل بينها السرد يتوحد المتن محققاً سردية خطاب الرحلة الكلي.

ويوفر متن رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) خصوصية أدبية تتيح

التركيز على تنوع خطابها، وطرق اشتغاله بين الواقع والتخييل، فمنتجها من أبرز أدباء عصره، الشاعر والناثر، ابن معصوم المدني الذي يمتلك رصيداً ثقافياً متعدد المصادر، تشهد به رصانة مصنفاته وتنوعها.

يختص السرد بتتبع الأحداث بوصفها واقعة زمانية، ولا يكون هذا التتبع الذي يقوم به السرد منطقياً، بل يخضع لإستراتيجية خاصة وتنقلات نوعية، يمتلك فيها السارد زمنه، فيكون في إمكانه تقديم بعض الأحداث، أو تأخيرها، أو إغفالها، أو توقيف السرد عند نقطة معينة، والانتقال إلى الوصف، فيصبح الزمن أداةً لوعي الأحداث، وتتابعها، ويغدو السرد أداة لوعي العلاقات المضمرة بين الأحداث، عن طريق ترتيبها وفق أساس خاص يحاول به السارد أن يرى الأحداث وترابطها عن طريق الحكاية/ الفعل الذي تمارسه الشخصيات في علاقاتها المتبادلة[90].

والأحداث في خطاب الرحلة لا يصنعها الرحَّالة، بل هي أحداث تملك مرجعية واقعية، تمثل تجربة عاشها المؤلف، وبهذا يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات السردية التي تكون أحداثها من صنع مؤلفها؛ لأنها تملك إمكانية الحدوث، وليس من المؤكد أنها وقعت وعاشها مؤلفها، على عكس خطاب الرحلة، الذي ينقل الواقع لا المحتمل[91]، فمؤلف الرحلة يوجد في مسار الأحداث فيبدي تفاعلاً معها، أو يجري بعض التغيير عن طريق الحذف أو التلخيص في بعض المقاطع[92].

البناء والتزميـن

تتحدد بنية خطاب الرحلة في (سلوة الغريب وأسوة الأريب) من خلال بنية كبرى أو رئيسة يتحكم بها العنصر المهيمن (حكاية السفر)، تسرد بضمير المتكلم (مفرد/ جمع) تقابلها بنيات صغرى تتشكل من محكيات وصفية، ومتواليات حوارية، أو استطرادات، أو استرجاعات من الذاكرة أو المنقول، تصاغ بضمير الغائب (مفرد/ جمع).

وينفتح السرد من خلال دينامية البداية التي تحيل على حركة السفر،

ومنطلق الرحلة، بعد أن سبقتها مقدمة معنونة من المؤلف: (فيما جاء في السفر والاغتراب)، لتدخل البداية في لقاء مع المتلقي، لتأطير أفق انتظاره، وتثبيت مجموعة من الوظائف، كالإغراء، والإخبار، والاندماج[93]، فيسعى السارد/ الشخصية في مفتتح السرد إلى تقديم منحى توثيقي يرهن صدق أحداث الرحلة وحقيقتها، محدداً نقطة المنطلق، ومشهد الوداع، ومؤشرات زمنية مرجعية "فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستٍّ خلون من شعبان المعظَّم عام ستة وستين وألف، وذلك بعد أن تملَّيت من تلك المآثر الكرام وتلوت ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فسرنا على اسم الله، والمودعون يزرّون الأعضاء على الأجياد، والمدام تذري هواطل دمعها على أجياد، وقد أذن جمع الشمل بالانصداع"[94]،وتظل ثيمة السفر بؤرة مركزية ينطلق منها مسار الأحداث ويؤوب إليها، ثم ما تلبث أن تتراجع هذه البؤرة تاركة المجال إلى البنيات الصغرى في محطات العبور والتوقف "وكلما بدا خفوت تلك الثيمات، أو اختفت، أو أدت وظيفتها، يتم اللجوء مرة ثانية إلى مكون السفر لفتح آفاق أخرى على ثيمات جديدة، وهكذا يكون السفر مولِّداً وجسراً، كما هو حافز ووعاء"[95].

ولا يلتزم السارد في لحظة تخطيب الرحلة بتتابع الوقائع السردية؛ فقد يستبق أحداثاً، ويؤخر أخرى، ويشحنها بدلالات قد لا تكون حاضرة في وعي الرحَّالة، وقد يُدخل في مجرى حكاية السفر، حكايات ثانوية، أو وقفات وصفية؛ فالجملة السردية "في النص الرحلي خطاب بؤريٌّ، ومحرك دينامي للأحداث رغم قِصر الجملة وكثافتها، فهي مثقلة بالأوصاف وتتالي الأحداث، ولكن أهم ما يميزها هو تشكُّلها من أربعة عناصر خام: الخبر، والسند، والفعل، والمرجع"[96]، فبعد أن يفتتح السارد/ الشخصية أول جملة سردية إيذاناً ببدء الرحلة، بقوله: "فسلكنا طريق اليمن الميمون، متوجهين نحو ذلك القطر المأمون، وسرينا نقتحم مهامه وقفاراً، ولا نملك للدموع كفافاً، ولا للقلوب نفاراً، نجوب جيوب تلك الليلة الدهماء، ونخبط خبط عشواء في تلك الفلاة اليهماء، إلى أن أسفر الصبح، فنزلنا بحمى هنالك مباح يقال له

(البيضاء)، قد نشر من محله راية سوداء، كأنَّه لم يُنبت قطُّ نجمة خضراء، فقِلْنا فيه ذلك اليوم وهيهات أن ينجح طرف إلى النوم، فارتحلنا منه إلى (السعدية)"[97]، ويتابع السرد مسار الرحلة مروراً بمحطات التوقف والعبور، يتداخل السرد والتقرير، ويتناوب السارد/الشخصية، والسارد المئبر، فيتحول مجرى الحكاية مع السارد/ المئبر إلى تقرير وصفي، يحضر فيه سحر الاستطرادات والوقفات الوصفية، والأخبار المنقولة، والاسترجاعات، فبعد أن وصلت الرحلة إلى محطة عبور (اللِّيث)، وهي نقطة الانتقال من فضاء البر إلى فضاء البحر يواصل السرد تتابعه بواسطة السارد /الشخصية أمام دهشة البحر، وما اعترضهم فيه من أحداث، مسجلاً رؤيته للوقائع والأشياء بسرد مباشر وغير مباشر عن ذات الرحَّالة وذهنيته وتصوراته "وفيه كان أول مشاهدتنا للبحر الزاخر، والفلك الماخر، فهالنا من أمر البحر ما رأيناه، ووددنا أن لم نكن نراه ولا راءَيناه، ولما اكتسى الجوُّ ثوب الأصيل أخذ الركب في التقويض والرحيل، فما سرنا قليلاً حتى ضللنا الطريق. . . ثم لم تزل السفينة ترتفع بنا وتنخفض، وترتعش، وتنتفض، وقد بلغت النفوس الحلاقم، وتجرَّعت من البحر العلاقم"[98]، وبعد وصول الرحلة إلى محطة (القنفذة) يتحول السرد إلى استرجاع تاريخي للفضاءات والأمكنة والأحداث والشخصيات المشهورة، استدعاه المرور بالمكان الحاضن لقصة بحر (القنفذة)، وما جرى فيه من أحداث؛ فقد توزعت السرد بين حكايات، وقصائد شعرية، وأخبار منقولة، إلى أن يتضاءل خطاب السرد لصالح التقرير، كقوله: "فائدة: في سنة سبع وتسعمائة غُرِّق القاضي أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة في بحر القنفذة المذكور بأمر والي مكة المشرفة"، ويمتد الوصف/ التاريخ مستغرقاً ست صفحات، بذكر تفاصيل حكاية هذا القاضي، وما يتعلق بها من أحداث، وأخبار، ومقطوعات شعرية بسرد استرجاعي يعتمد أحياناً على محفوظ الذاكرة، وأحياناً بالنقل المتصل المباشر من المصادر التاريخية، مع التنويه بهذه المصادر والإشارة إليها، ومن ثم، فالسارد الذي يروي حكاية السفر ويكون مشاركاً فيها، ينقل من جهة أخرى عن ساردين آخرين حكايات لا يشارك فيها، ولا ينتمي إلى عالمها، وبهذا

تتوازى في النص الرحلي حكايتان: حكاية السفر، وحكاية التاريخ، عن طريق تناسل الحكايات الثانوية، وما تتضمنه من مشاهدات، ومواقف، ورؤى، وتعليقات، وينتظم بنية الرحلة الكليَّة التناوب بين: (حكاية السفر= السرد، والحكايات التاريخية = التقرير)، وما يتخللهما من مقاطع وصفية، فالسارد / المئبر، بعد أن نقل قصة (القاضي ابن ظهيرة) الذي غُرِّق في بحر محطة العبور (القنفذة)، يتبعها بمقاطع وصفية غرائبية عن كائنات البحر في محطة العبور (جازان) "ومن غريب ما استفاض خبره في زماننا هذا: أنَّ البحر كان قد ألقى إلى ساحل البندر المذكور قطعة عظيمة من العنبر"، ناقلاً بعض الحكايات العجيبة الغريبة عن العنبر من المصادر التاريخية، ومن الرحَّالة السابقين، إلى أن يصل مسار الرحلة إلى محطة العبور (اللُّحيَّة)، فيعود السارد/ الشخصية لسرد حكاية السفر، ثم ينتقل السرد إلى السارد/ المئبر بخطاب التقرير والوصف إلى أن يصل مسار الرحلة إلى جزيرة (كمران).

وتتخلل متن رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب) مجموعة من العناوين الفرعية التي تحيل إلى مضمونها[99]، وترتبط بالأحداث أو الوقائع المنزاحة عن خطاب الرحلة من أمثال: (فائدة، لطيفة، طريفة، فائدة، غريبة، نكتة لطيفة، فائدة حكيمة، فائدة سنيَّة)، وتمثل هذه العناوين الفرعية مؤشرات نصية توجه المتلقي، وتشعره بتوقف السارد/ الشخصية، ومواصلة السارد/ المئبر، كما أنها مؤشرات تؤدي مهمة الربط بين تواري خطاب السرد، وظهور خطاب التقرير؛ "ذلك أن السارد في الرحلة يصف ليسرد، ويسرد ليصف، فالوصف ليس مفارقاً للسرد من جهة، ولا يُعدُّ تابعاً له من جهة ثانية، بل الوصف يُصبح في نهاية الأمر مستوى من مستويات السرد"[100]، كما أن مقاطع الوصف هي جزء من زمن الرحلة، يؤطرها هذا التنقل بين محطات الرحلة ومفاصلها، وتقوم هذه المحطات ببعض الوظائف: كاسترجاع الأنفاس للسارد والمتلقي، وتوفير متعة الاستطراد، ورصد التفصيل في بعض الحكايات الثانوية، وتخفيف وتيرة تتابع السرد[101]، وحين يعود السارد/ الشخصية إلى سرد حكاية السفر، تكون عودته أيضاً من خلال مؤشرات نصية، توجه عملية التلقي من أمثال: (رجع، ولنعد إلى ما نحن بصدده).

ويرافق هذه البنية المركزية ذات مركزية مزدوجة، فهي من جهة تكون بؤرة الحكي، تُقدم عالم الرحلة من خلال رؤيتها، وهي من جهة أخرى ذات تسرد وتصف[102]، كما أن هذه الذات تزدوج مرة أخرى إلى سارد/ شخصية تشارك في الأحداث وتنفعل بها، فهذه الذات المركزية تحضر بوصفها ساردا/ مئبراً في البنيات الصغرى بواسطة التقرير والوصف، ومثال هذا كثيف في رحلة (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، ونمثل له بهذا المشهد، حين يصف السارد/ المئبر إحدى محطات توقف الرحلة (ميناء المخا) "والمخا (بالخاء المعجمة المخففة، وفتح الميم قبلها): مكان قريب من زبيد على ساحل البحر، كذا ضبطها اليافعي في تاريخه في حوادث سنة أربع عشرة وخمسمائة، والعوام يقولون: المخا (بضم الميم)، وهو بندر في غاية العمارة، فيه قصور مشيَّدة، وحدائق عديدة تحتوي على نخل كثير، ويجلب إليه أنواع الفواكه من تعز وغيرها، ومستقى أهلها من آبار في جانبه الشرقي إلا أن ماءها لا يخلو من ملوحة، ويجلب للأكابر من موزَّع ماء عذب جدّاً، وفيه حمَّام لطيف، بناه رجل من أكابر أتباع مولانا السلطان، يقال له الشيخ ملك محمد، وأخبرني من كان حاضر بنائه، أن الشيخ المذكور فرش أرضه بالقرنفل، ثم ألقى عليه الجص لتطيب رائحته، ولقد اكتسب أجراً عظيماً في بنائه، ولم يمدح أحد من الشعراء الحمَّام كما مدحه السريُّ الموصلي، فإنَّه أحسن في مدحه، وأبدع جدّاً في وصفه"[103]، فالسارد/ المئبر يقدم المشهد بواسطة صيغ الوصف المحايدة، ولكننا نلمح حضور الذات من خلال رؤيته الخاصة، وتعليقاته، وأحكامه؛ ذلك أن "كل ملفوظ يحمل في ذاته آثار تلفظه وفعلَ إنتاجه الدقيق والفردي"[104]. وتأتي هذه البنيات الصغرى بضمير الغائب (مفرد/ وجمع) عن طريق التحويل من أسلوب السرد إلى أسلوب التقرير المدعم بمقاطع الوصف، "ويحدد غياب الإسناد أو وجوده – بمختلف صيغه وكيفيات إحالته على السارد – المسافة الفاصلة بين السرد الآني"[105] لحكاية السفر، والسرد اللاحق الذي يقدم الحكايات التاريخية، وكيفية تأطير الأولى للثانية، وكذلك يحدد الإسناد المسافة الزمنية بين السارد وسرده، وبالإضافة إلى أفعال الإسناد التي تُقاس بواسطتها المسافة بين مستويات السرد، ينهض الفضاء

المكاني في خطاب الرحلة أيضاً وسيلة للربط بين الحكايات في سياقات مختلفة، فـ (ميناء المخا) الذي توقفت به الرحلة في ثاني شهر رمضان سنة ست وستين وألف، ثم ارتحلت منه يوم السبت لثمان خلون من ذي القعدة سنة سبع وستين، "فكانت مدة إقامتنا بها أربعة عشر شهراً وستة أيام"، هذا الفضاء المكاني كان ملتقى لكثير من الأدباء والعلماء وهم في طريق رحلاتهم المتنوعة إلى بلاد الهند، وهو فضاء يمثل مهداً لحضارات وممالك عريقة في التاريخ القديم، كما يمثل نقطة عبور للهجرات العربية، وهو في نص الرحلة أيضاً يشكل فضاء يتقاطع فيه السارد/ المشارك، والسارد المئبر، ورابطة مهمة بسرد متواقت لحكايات تاريخية، تؤطرها حكاية السفر، كما يتضح بهذا المقطع: "**غريبة**: وفي أيام إقامتنا بالمخا انقضَّ كوكب عظيم هائل من جهة الجنوب إلى الشمال بعد المغرب، فأضاءت له الدنيا وهو كشعلة نار، وترك وراءه ضياءً مستطيلاً جداً"[106]، فتكون هذه الحادثة العارضة محفزاً لتناسل حكايات تاريخية بالاعتماد على المصادر حيناً، أو النقل عن رواة مجهولين حياناً آخر، "**رجع**: وبعد انقضاء الموسم بالمخا وذهاب جميع السفن عنها خليت عمَّن رأيناه بها من الأكابر، فلم يبق فيها سوى رعاع أهلها من السوقة وغيرهم...[107]، ثم لم نزل نقاسي محن الغربة، ونكابد إحن الكربة، وقد طالت أيَّام البين والنوى...[108]، ولقد كنتُ أبرز إلى تلك الحدائق الأنيقة، وأتنقَّل فيها من حديقة إلى حديقة، لعلِّي أجد بذلك سلوة عمَّا أنا فيه، وهيهات ما لمثلي وللتسلِّي، إني إذن لسفيه، فأعود وقد تضاعفت بواعث الهمِّ والتذكار، وترادفت نوابث الغمِّ والأفكار"[109].

ويكشف هذا التوازي بين البنية الرئيسة (حكاية السفر) والبنيات الصغرى (الحكايات التاريخية) التي تنتظم خطاب الرحلة الكلي، أن هذه البنيات على الرغم من كونها وحدات ثانوية، فإنها غاية في الأهمية؛ فهي تضيف بعداً جديداً لأمكنة العبور التي تجتازها الرحلة، أو تتوقف فيها، إذ لا وجود في السرد لوحدات ضائعة، أو لا قيمة لها، وهذا مرده إلى نظام البنية، ولا علاقة له بإقحام السارد لها، "فكل شيء في السرد له معنى، مهما طال وارتخى ودق الخيط الذي يصلها بأحد مستويات القصة"[110]، فهذه الحكايات التاريخية التي

تحف حكاية السفر، وترافقها طيلة خطاب الرحلة مهما كانت روابطها - تؤكد وظيفة التشويق السردي[111]، ويبين الشكل الآتي كيفية اشتغال خطاب رحلة: (سلوة الغريب وأسوة الأريب):

خطاطة خطاب الرحلة

توضح هذه الخطاطة النظام البنائي العام الذي يستند إليه فعل الرحلة وخطابها، ضمن حركية السرد من خلال الانتقال بين الفضاءات المختلفة التي عبرتها الرحلة في أزمنة متباينة: زمن الارتحال الواقعي السابق الممتد من الذهاب إلى الإياب، وزمن التخطيب الكتابي اللاحق وتمثله ذهنياً، وزمن التلقي التداولي المستمر، وفق تعدد الأنظمة والمحكيات المشدودة لبنية السفر التي أسهمت في تشكيل بناء الرحلة لفظياً وتوجيهه دلالياً، وبهذا يتأسس خطاب الرحلة وفق بنيتين أساسيتين: بنية رئيسة، هي بنية السفر (البؤرة المركزية) لنقل التجربة الذاتية، بزمن حقيقي خارج المسرود من الرحَّالة إلى المتلقي، يتمثل في فعل الارتحال، تؤكده المؤشرات النصية التي تحدد الزمن بدقة، وبنيات ثانوية، وهي بنية التقرير والوصف لتقديم رؤية موضوعية، بزمن متخيل يتحكم في منظومة السرد من السارد إلى المسرود له يحاكي زمن وقوع أفعال الارتحال، ولا يتطابق مع الزمن الوقائعي ولا يتبع تسلسله[112]، لهذا فإن تحويل فعل الارتحال إلى فعل سردي، بوصف الأخير آلية تُنقَل من خلالها الحكاية وتُسرد، يقدّم معرفة مزدوجة: معرفة بالفعل والتجربة والوقائع والأحداث، ومعرفة إبداعية بطرائق سرد هذه التجربة والوقائع، ومن هنا تتعدد الخطابات الرحلية وإن

تشابهت في فعل الارتحال، فأساليب تقديمها تتفاوت في إطار قواعد مشتركة بين مختلف الخطابات الرحلية تحدد انتماءها إلى نوع محدد الملامح والخصائص[113].

الهوامش والمراجع

(1) البريمي، عبد الله: "الزمن والسرد في فلسفة بول ريكور"، **مجلة الكلمة الإلكترونية**: العدد 81، 2014م، ص2.

(2) ريكور، بول: **الزمن والسرد**: ترجمة: سعيد الغانمي، وفلاح رحيم: ج1، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة 2006م، ص 20.

(3) بنكراد، سعيد: "مات ريكور عاشت التأويلية"، **جريدة الاتحاد الاشتراكي**: العدد 7952، 2005م، ص 4.

(4) "الزمن والسرد في فلسفة بول ريكور"، ص4.

(5) يقطين، سعيد: "**السرد العربي: مفاهيم وتجليات**"، ط1، المغرب: الدار العربية للعلوم ناشرون، 1433هـ، ص 171.

(6) السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص172.

(7) حليفي، شعيب: **الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، ط1، القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006م، ص 41.

(8) الرحلة في الأدب العربي، ص42، 44.

(9) جبار، سعيد: **من السردية إلى التخيلية**، ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف، 1434هـ، ص173، 174.

(10) من السردية إلى التخيلية، ص 51.

(11) من السردية إلى التخيلية، ص48.

(12) المدني، ابن معصوم: **سلوة الغريب وأسوة الأريب**، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، بيروت: مكتبة النهضة العربية، 1988م، ص 19.

(13) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص29.

(14) مودن، عبد الرحيم: **أدبية الرحلة**، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1996م، ص 22.

(15) الرحلة في الأدب العربي ص155.

(16) أدبية الرحلة، ص 22، 28.

(17) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص29.

(18) الرحلة في الأدب العربي، ص89.

(19) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص311.

(20) الرحلة في الأدب العربي، ص88.

(21) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص36.

(22) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص17. والبيت للحريري صاحب المقامات من مقطوعة وردت في المقامة السابعة والثلاثين (الصعيدية)، الشريشي، أحمد: **شرح مقامات الحريري**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،ج4، د. ط، بيروت: المكتبة العصرية للتوزيع والنشر، 1413هـ، ص240.

(23) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص168.

(24) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص193.

(25) الرحلة في الأدب العربي، ص87.

(26) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص328.

(27) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص328.

(28) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص311.

(29) أدبية الرحلة، ص21.

(30) رحلات داخلية في حدود الوطن، وخارجية في البلاد الإسلامية، أو غير الإسلامية، أو دنيوية أو أخروية، الرحلة في الأدب العربي، ص 132.

(31) علمي، وتجاري، واجتماعي، وسياسي، وديني... إلخ.

(32) يعتمد هذا التصنيف على مرجعيتين رئيسيتين: حقيقية، وخيالية، ثم تتعشب بعد ذلك إلى أنواع صغرى متعددة تملك عواملها وحوافزها الخاصة، الرحلة في الأدب العربي، ص 134.

(33) أدبية الرحلة، ص50.

(34) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 59.

(35) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص31.

(36) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص38.

(37) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص18.

(38) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص30.

(39) المحبي، محمد أمين: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج1، د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت، ص 392.

(40) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 15.

(41) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص18.

(42) من السردية إلى التخيلية، ص181.

(43) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 19.

(44) أدبية الرحلة، ص 29.

(45) الرحلة في الأدب العربي، ص 168.

(46) يعقوب، ناصر: **اللغة الشعرية وتجلياتها في الرواية العربية**، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004م، ص115.

(47) أشهبون، عبد الملك: **العنوان في الرواية العربية**، ط1، دمشق: دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2011م، ص 15.

(48) اللغة الشعرية وتجلياتها في الرواية العربية، ص103.

(49) الجزار، محمد فكري: **العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي**، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص7، 8.

(50) الرحلة في الأدب العربي، ص171.

(51) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص 7.

(52) نجم، مفيد: "شعرية العنونة في تجربة زكريا تامر القصصية"، **مجلة الراوي**، العدد17، 2007م، ص 93.

(53) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص 10.

(54) "شعرية العنونة في تجربة زكريا تامر القصصية"، ص94.

(55) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص22.

(56) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص 8

(57) الرحلة في الأدب العربي، ص173.

(58) لمزيد من التفصل والأمثلة، انظر: الرحلة في الأدب العربي، ص 174 – 178.

(59) ك: رحلة ابن بطوطة، اختصاراً لعنوانها الأصلي (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أو الرحلة المقدسية لمحمد الفاسي (1099هـ)، أو الشافية لأبي العياشي الدرعي (1144هـ).

(60) من أمثال: (رسالة ابن فضلان)، و(الرسالة الثانية) لأبي دلف.

(61) خليفة، حاجي: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**،ج1، د.ط، بيروت: دار الفكر العربي، 1982م، ص360 – 377، فقد أورد مجموعة مؤلفات من حقول معرفية مختلفة تتصدر عناوينها مفردة (تحفة).

(62) ذاكر، عبد النبي: **عتبات الكتابة: مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي**، ط1، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998م، ص 13.

(63) الرحلة في الأدب العربي، ص173.

(64) الحجري، إبراهيم: **شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية نموذج القلصادي**،ط1، سوريا: دار النايا، 2012م، ص97.

(65) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص19.

(66) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص7.

(67) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص19.

(68) أبو غدة، عبد الفتاح: **تحقيق اسمي الصحيحين واسم جامع الترمذي**، ط1، سوريا: مكتب المطبوعات الإسلامية، 1993م، ص 5.

(69) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص19.

(70) العنوان وسيميوطقيا الاتصال الأدبي، ص23.

(71) ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، ج6، ط1،بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988م، ص352.

(72) لسان العرب، ص148.

(73) الرحلة في الأدب العربي، ص183.

(74) هارون، عبد السلام، **تحقيق النصوص ونشرها**،ج1، ط1، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع 1385هـ، ص39.

(75) الرحلة في الأدب العربي، ص184.

(76) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 16.

(77) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص17.

(78) الرحلة في الأدب العربي، ص190.

(79) السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص184.

(80) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص17.

(81) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 15.

(82) الرحلة في الأدب العربي، ص149.

(83) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص18.

(84) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص133.

(85) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص15.

(86) الرحلة في الأدب العربي، ص197.

(87) السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص180.

(88) الحاج علي، هيثم:**الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي**، ط1، بيروت: دار الانتشار العربي 2008م، ص 24.

(89) بوعزة، محمد: **سرديات ثقافية**، ط1، الرباط: دار رأمان، 1435هـ، ص 172.

(90) الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، ص26.

(91) زيتوني، لطيف: "السيميولوجيا وأدب الرحلة"، **مجلة عالم الفكر**، مج 24، العدد 3، 1996م، ص 255.

(92) أدبية الرحلة، ص33.

(93) الرحلة في الأدب العربي، ص217.

(94) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص37.

(95) الرحلة في الأدب العربي، ص 269.

(96) الرحلة في الأدب العربي، ص 235.

(97) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص41.

(98) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص46، 55.

(99) تضمنت الرحلة ما يقرُب من ثلاثين عنواناً فرعياً، ويبدو أنها من صنع المؤلف، ويؤكد هذا صياغة ألفاظها وتنوعها، كما أن المؤلف يذكر أحياناً ألفاظ هذه العناوين في سياق حديثه، كقوله مثلاً: "وهنا فائدة سنيَّة تتعلق بنسبنا"، وقوله: "لم أسمع في عمري بأسمج من هذه اللطيفة".

(100) أدبية الرحلة، ص 37.

(101) أدبية الرحلة، ص 36.

(102) السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص184.

(103) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص 93.

(104) تودوروف، تزفتان: **الشعرية**، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، ط2، الدار البيضاء: دار توبقال، 1990م، ص 43.

(105) بوطبسو، فاطمة: **أدبية الخطاب في رحلة (نور الأندلس) لأمين الريحاني**، أطروحة ماجستير، جامعة منتوري قسطينة، الجزائر، 2010م، ص 40.

(106) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص107.

(107) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص110.

(108) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص118.

(109) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ص119.

(110) بارت، رولان: **التحليل البنيوي للسرد**: ترجمة: حسين سحبان، وفؤاد صفا، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، ط1، الرباط، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1992م، ص 14.

(111) أدبية الخطاب في رحلة (نور الأندلس)، ص40.

(112) الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، ص29.

(113) السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص 180.

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت
صدر العدد الأول منها في يناير عام 1975م

رئيس التحرير

أ. د. بنيـان سعـود تركـي

ترحـب المجلة بنشر البحوث والدراسات العلمية المتعلقة بشؤون منطقة الخليج والجزيرة العربية في مختلف المجالات العلمية.

ومن أبوابها

- البحوث العربية.
- البحوث الإنجليزية.
- عرض الكتب ومراجعتها.
- البيبلوجرافيا العربية.
- البيبلوجرافيا الإنجليزية.
- ملخصات الرسائل الجامعية: (ماجستير - دكتوراه).
- التقارير: مؤتمرات - ندوات

الاشتراكات

ترسل قيمة الاشتراك مقدماً بشيك لأمر - جامعة الكويت
مسحوب على أحد المصارف الكويتية

داخل دولة الكويت : للأفراد : 3 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً
الدول العربية : للأفراد : 4 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً
الدول الغير عربية : للأفراد : 4 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً

توجه جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

ص.ب: 17073 الخالدية - الرمز البريدي: 72451 الكويت
تلفون: 24984067 - 24984066 - 24833215 965+ - فاكس: 24833705 965+
E-mail: jgaps@ku.edu.kw - jgaps.ku@gmail.com
http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jgaps
تفهرس المجلة وملخصاتها ونصوصها في قواعد البيانات والمعلومات التالية:
EBSCO Publishing Products
دار المنظومة: www.mandumah.com
الرقم الدولي للمجلة: ISSN : 0254 - 4288